مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

أحداث التاريخ بين التكرار والفردية عند ابن خلدون - أوغسطين - بوسويه

د. فتحي محمد نبيه شعبان

الأستاذ المساعد بقسم الفلسفة – كلية الآداب بقنا

أبحاث

أحداث التاريخ بين التكرار والفردية عند ابن خلدون ـ أوغسطين ـ بوسويه

د. فتحي محمد نبيه شعبان

الأستاذ المساعد بقسم الفلسفة – كلية الآداب بقنا

مقدمة :

كانت العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية مصدر إلهام للكثير من الفلسفات الحديثة والمعاصرة في التاريخ ، فكان لنظرية ابن خلدون وأوغسطين عظيم الأثر في نشأة هذا الفرع الهام من فروع الفلسفة وبالذات في الاهتمام بالدين . فلقد كانت مقدمة ابن خلدون ولا تزال علامة بارزة على منطق محكم وفكر سديد تألق فيها ابن خلدون كعالم إسلامي وفيلسوف ومؤرخ وعالم اجتماع . تكلم ابن خلدون في مقدمته عن دورية التاريخ والأطوار التي تمر بها الحضارات دون أن يكون تصوره للتاريخ دائرياً كاليونانيين ودون أن يغرق نفسه في اللامتناهي وهذا نابع من إيمانه باليوم الآخر .

وبالنسبة لأوغسطين فإن التاريخ العالمي كما رسمه وحدد معالمه في كتاب " مدينة الله " اتسم بسمات وخصائص معينة ، فهو ينبذ التصور اليوناني للزمان ويقر بفردية الواقعة التاريخية وعدم تكرارها ويعد أوغسطين المثل الأكبر للنظرة المسيحية التي ترفض التصور اليوناني للزمان لدورات أبدية . واستند أوغسطين في هذا لدحض حجج اليونانيين إلى الكتب المقدسة . أما بوسويه فشأنه شأن أوغسطين أقر هو الآخر بفردية الحادثة التاريخية . فالتاريخ العالمي عنده بدأ من خليقة العالم وحتى توطد الإمبراطورية المسيحية في الغرب في عهد شرلمان .

وسبب اختياري لهذا الموضوع يرجع إلى رغبتي للبحث العلمي المقارن وإلى الكشف عن دور الدين والإيمان باليوم الآخر في تشكيل فلسفة ابن خلدون وأوغسطين للتاريخ. ومن هنا فقد وضعت هذا البحث تحت عبارة " أحداث التاريخ بين التكرار والفردية "

تهدف هذه الدراسة إلى المقارنة بين فكرة تكرار الأحداث التاريخية وبين فكرة فردية الأحداث التاريخية ، وبيان كيف استندت هاتان النظريتان إلى الدين والإيمان باليوم الآخر .

ولتحقيق هذا الهدف فقد استخدمت المنهج التاريخي والتحليلي والمقارن . ومن هنا فقد قسمت هذا البحث إلى النقاط الآتية :

أولاً : الدين وحتمية تكرار وتوقف أحداث التاريخ عند ابن خلدون .

ثانيا : فردية أحداث التاريخ عند أوغسطين وموقفه من التفسير الدائري عند اليونان .

ثالثاً : فردية أحداث التاريخ عند بوسويه .

والله أسأل أن أكون قد وفقت في إحياء هذا البحث فإن كنت قد أصبت فهذا فضل من الله سبحانه وتعالى وإن كنت قد أخطأت فمن نفسي " ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها".

الدين وحتمية تكرار وتوقف أحداث التاريخ عند ابن خلدون

الدين وعملية تكرار الحادثة التاريخية :

إن أحداث التاريخ في تكرارها وتعاقبها كما يرى ابن خلدون* تحكمها قوانين ثابتة ، ومبدأ عام يتحكم فيها وفي حركتها ، فابن خلدون كمفكر وعالم إسلامي لا تقوده الحتمية وتكرار الأحداث التاريخية إلى اللامتناهي وهو المصير الذي آلت إليه الفلسفة اليونانية . ولم يتحدث عن وقائع فردية في التاريخ كما هو الحال عند أنصار العناية الإلهية .

صحيح أن ما توفر لابن خلدون من وقائع تاريخية كان يسيراً للغاية إلا أنه استطاع بقوة بصيرته ومنطقه المحكم أن يقدم للعالم نظرية متينة في التاريخ تقوم على مبدأ عام يمكن من خلاله تفسير حركة التاريخ برمتها ما تقدم منها وما يمكن أن يحدث في المستقبل .

وترجع أهمية نظرية ابن خلدون في التاريخ إلى أنها تهتم بدراسة الأحداث التاريخية دراسة عقلية وواقعية بحثاً عن القوانين التي تتحكم فيها وفي حركتها . إن " الفلاسفة المسلمين قبل ابن خلدون أنفسهم اهتموا بالتأليف بين الحقيقتين القرآنية والعقلية ، لكن هذا أدى باللاهوت الإسلامي إلى استيعاب العقلانية اليونانية أكثر من الانغماس في العقلانية الإسلامية . والاهتمام بالدين والفلسفة أثرا في جميع الفروع الإسلامية ـ القانون ، التاريخ ، وما أشبه . وهذا النهج في القرن الرابع عشر وهو الذي له أصوله الدينية في القرآن والأحاديث النبوية وأصوله الفلسفية في العقلانية اليونانية ، قد بلغ منتهاه " [1] . ورغم اختلاف ابن خلدون عن السابقين من حيث اهتمامه بدراسة التاريخ دراسة علمية دقيقة إلا أنه لم يبتعد أبداً عن روح الدين الإسلامي

---

* ـــــ ولد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون بتونس سنة ٧٣٢ هـ (١٤٠٦م) وترجع أسرة ابن خلدون إلى أصل يماني حضرمي . وتميز ابن خلدون بالفكر الشامل ، فهو العالم الإسلامي الكبير ، والإمام في الفقه المالكي . ورجل القانون والفيلسوف في آن واحد . وعرف ابن خلدون المنهج التاريخي ليفيد كأساس التاريخ تفسيري وتعليلي . ومن هنا كان اسبق من " ميكافللي " في كتابه " الأمير " و " مونتيكيو " في كتابه (روح القوانين) .

كان ابن نس خلدون بالإضافة إلى كونه فيلسوفا تاريخيا واجتماعيا رائدا لعلم الاجتماع . وكان ابن خلدون من أعظم علماء الاجتماع إدراكا وفهما لحقائق العمران الأولى فى تاريخ الفكر البشري أجمع . إن ابن خلدون تصور وقدم للبشرية فلسفة للتاريخ كأعظم عمل من نوعه (دكتور صلاح الين بسيوني رسلان ـــــ السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون ص ٧ ، ٨ وما بعدها) .

[1] - The Encyclopedia Of Philosophy – Paul Edwards – Editor in Chief – Volume Three- Macmillan : [New York] PP : 108 – 109 .

وتتبدى أهمية الدين عنده في الآيات القرآنية التي برهن بها على صدق نظريته وإيمانه بدور العناية الإلهية في التاريخ .

إن حركة التاريخ عند ابن خلدون هي حركة انتقال مستمرة من البداوة إلى الحضارة. وتسير هذه الحركة ، لا على خط مستقيم ، بل على شكل دورة : والانتقال من البداوة إلى الحضارة يتم من خلال " الدولة " ... ولكن الدولة عند ابن خلدون تأتي وقد حوت في جوفها بذور انهيارها ، مما يجعلها محكوماً عليها بالاضمحلال والزوال، وهي بهذا إنما تفسح المجال لقيام جماعة بدوية أخرى بتأسيس دولة جديدة لا تنجو هي الأخرى من نفس المصير[1] . فإذا كانت الأحداث التاريخية تتسم عند ابن خلدون بالدورية والحتمية فإنها عند أوغسطين وبوسويه تتسم بالفردية وعدم التكرار . والنظرة المسيحية للتاريخ تقرر أن " معنى التاريخ ، بالنسبة للمسيحي ، ينطلق من علاقة التاريخ بما هو أبدي . وفوق كل ذلك فإن الله يوظف أحداث التاريخ لتحقيق مراداته ، مظهراً ذاته في حياة وموت المسيح " [2] والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو هل الأحداث التاريخية عند ابن خلدون تتكرر باستمرار دون توقف ؟ والجواب هو أن ابن خلدون هو رجل ومفكر إسلامي يؤمن بيوم الحساب ، وبالرغم من تسلسل الأحداث التاريخية ودوريتها وتعاقبها فإن التاريخ البشري سينتهي حتماً .

والنقطة التي نود ذكرها هنا هي أن المؤرخ الإنجليزي المعاصر أرنولد توينبي قد تحدث هو الآخر عن وجود قانون حتمي ثابت تخضع له كل حضارات التاريخ ، يقول " والافتراض الرئيسي هو أنه في المسار المتتالي أو الذي يحدث في وقت واحد من جانب الحضارات المختلفة المعروفة ـ الحضارات المصرية والعراقية والمينوية والهندية والشرق الأقصى ، والهلينية والسورية ـ الإيرانية ، والبيزنطية والغربية والشرق الأوسط ـ تكشف لنا الرؤية التاريخية عن تكرار مستمر عميق عن دلالة عميقة للخبرة الإنسانية على نطاق بطولي . [3] ومع الاتفاق الواضح بين ابن خلدون وتوينبي في القول بالتكرار والحتمية في مجرى التاريخ فإنه يوجد بينهما اتفاق أساسي وهو التركيز على العامل الديني ، فهدف ابن خلدون وكذلك توينبي هو أنه توجد نهاية للتاريخ سوف تتوقف عندها مسيرة التاريخ ، وهو اليوم الآخر .

إن تحليل ابن خلدون لانحلال الحضارة الإسلامية أنتج بحثاً أكثر قرباً للسياق التاريخي ومنطق الأحاسيس الإسلامية . وأعطى أيضاً البحث في الذات الداخلية العليا

---

[1] ـــــ دكتور محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون ـــــ العصبية والدولة ـــــ معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي [دار الشئون الثقافية العامة بغداد ـ دار النشر المغربية] "بدون تاريخ" ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

[2] - Stevenson Leslie – Seven Theories Of Human Nature [Oxford University Press, 1974]. PP : 4 – 5 .

٣ – أرنولد توينبي ـــــ الفكر التاريخي عند الإغريق ـــــ مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية ـــــ الطبعة الثانية ـــــ ترجمة لمعي المطيعي [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠] . ص ٣٧ .

أساساً عقلياً وواقعياً . [١] فابن خلدون يسمح لنا بالإدراك الشامل للجدل الداخلي للإسلام ، بديلاً عن القراءات المتحيزة التي تربط مختلف أشكال الظواهر عشوائياً بدون إحكام تعمقها . فالأسباب الحقيقة للأزمة الإسلامية قد لا تكون ظاهرة في الحال ؛ فهي تحتاج إلى دراسة نظرية متأنية، كما هو الحال في " علم الثقافة " عند ابن خلدون . [٢] وعلى أساس عقلي وواقعي وبرؤية كلية شاملة ووفقاً لمنهج علمي واضح المعالم درس ابن خلدون الأحداث التاريخية بحثاً عن المنطق الذي تسير بمقتضاه هذه الأحداث ، فماذا رأى ابن خلدون إذن ؟ رأى عملية دورية حتمية متكررة تهيمن على أحداث التاريخ بأسرها .

كان ابن خلدون دارساً ضليعاً لتعاليم الإسلام ، بل وشاهد انحلال قوة وميتافيزيقا الإسلام، فقرر البحث عن الأسباب العينية لهذا الانحلال . فأعطاه التاريخ الإجابات عن تساؤلاته حول التحول في ثروات الإسلام أكثر من الميتافيزيقا . ولأن هذه الملاحظات تكونت كقوانين طبيعية ، فإن ابن خلدون قد درسها ليس فقط بوصفه فيلسوفاً للتاريخ وإنما أيضاً كمفكر اجتماعي وسياسي ، اقتصادي ، تربوي ، إبستمولوجي ، ومؤرخ للعلوم الإسلامية . استرشد بتنظيماته الخاصة أو تحقيقاته [٣] . ورغم وجود اختلاف واضح بين التفسير الطبيعي الدائري للتاريخ عند ابن خلدون والتفسير التقدمي الفردي عند أوغسطين إلا أنهما ينطلقان في تفسيرهما للتاريخ من بواعث دينية .

والتقدم عند أوغسطين مرتبط بالمسيحية حيث إنه يسعى إلى الوصول إلى مدينة سماوية أما " فلسفة التاريخ في العالم الحديث فترتكز على فكرة التقدم ، وهذه الفكرة استبعدت التفسير المسيحي واللاهوتي في التاريخ الذي أعد بيانها الكلاسيكي القديس أوغسطين . ورغم أنها دعت أيضاً إلى تقدم ممتد فإن فكرة التقدم لم تتجه نحو مدينة الله التي توجد خلف التاريخ ولكنها اتجهت إلى مدينة زمنية خلقها الإنسان نفسه على الأرض " [٤] ومن هنا نجد أن أنصار التقدم قد استبعدوا التفسيرات المسيحية واللاهوتية للتاريخ ، والتقدم عندهم يتجه نحو مدينة دنيوية لا مدينة سماوية ، مدينة دنيوية عند أنصار التقدم خلقها الإنسان .

---

[1] - Gill Stphen , mittehnan James H . Mittelman - Innovation and Transformation in international Studies , Cambridge |University Press , 2001| , P : 67 . Available From
httb . / / WWW . Books . Google . Com ." Accessed 20 March 2006" .

[2] - Ibid P : 67 .

[3] - The Encyclopedia – Paul Edwards – Editor in Chief PP : 108 – 109 .

[4]- Baumer Franklin L . Modern European Thought – Continuity and Change in Ideas 1600 – 1950 |Macmillan London 1977| PP : 16 – 17 .

باومر فرانكلين ـــــ الفكر الأوربي الحديث ـــــ ترجمة دكتور أحمد محمود ـــــ [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧] ص ٣٠ .

وفي أخريات القرن العشرين وبعد انتهاء الحرب الباردة أصبح ينظر إلى الدين على أنه مكون أساسي من مكونات الثقافة ، كما ذهب لذلك هنتنجتون وأرجع إليه كل الحروب والصدامات بين الحضارات في العالم . لقد ظهرت الثقافة كبديل "للفوضوية" والاقتصاد السياسي بوصفها بياناً كبيراً لتفسير عالم ما بعد الحرب الباردة . وبدلاً من تعظيم الحوار الحضاري ، ينشأ الاعتراف بالمبادئ الداخلية المتنوعة المتضمنة في السياقات التركيبية التاريخية الجزئية ، فيأتي أنصار الليبرالية (فوكوياما ١٩٩٢) أو "صدام الحضارات " المرتقب (هنتنجتون ١٩٩٣) بوصفها استمراراً لنماذج متلقاه ـ أي تنظيم مبادئ جديدة في هذه الأبنية ، وفضلاً عن هذا ، فإن ركود الهيمنة الغربية قد كان متكرراً . ومعرفة الـ "اختلاف " قد افترضت بصورة بديلة مكانة رسمية في عدة كتابات ما بعد التركيبية وما بعد الاستعمارية ـ أي معرفة الأحادية كموضوع حاسم للتصورية . على عكس ابن خلدون ، والخاصية العالمية للحضارة الإنسانية هي إغفال هذه الصيغ " [1] تلك هي نماذج جديدة لتفسير التاريخ سواء تمثلت هذه النماذج في انتصار الليبرالية عند فرنسيس فوكوياما أو كما هو الحال في الثقافة كما وردت عند صومويل هنتنجتون . والبواعث التي انطلقت منها هاتان النظريتان معروفة إنها بواعث دينية .

الدين والعصبية وتكرار أحداث التاريخ عند بن خلدون :

توصف نظرية ابن خلدون في التاريخ إلى جانب كونها طبيعية وحتمية بأنها دينية أيضاً. وعلامات ذلك عنده الآيات القرآنية التي تحسم كل فكرة ينكرها ووجود عناية إلهية تهيمن على الكون بأسره بما في ذلك أحداث التاريخ ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر الذي تتوقف عنده العملية الدورية للتاريخ كهدف نهائي لها ، وللدين أيضاً دور حاسم في نشأة الحضارات إذ أنه يقوي العصبية ويدعمها من حيث أنه يؤلف بين قلوب الناس ويوحد بينهم ويذهب الكبر والحسد والكراهية .

إن العصبية تحتل مكانة هامة عند ابن خلدون لأنها مغروسة في طبيعة البشر يقول " وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشائخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة ، وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي ممن أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم إذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى أرحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم " [2] فالعصبية على ذلك هي العامل المحرك للتاريخ لأنها مغروسة في

---

[1] - Gill Stphen , Mittehnan Games H . Innovation and Transformation Studies PP : 67 – 68 .

١ ـــ ابن خلدون عبد الرحمن ـــ المقدمة ـــ تحقيق الأستاذ حجر عاصي ص ٨٨ .

الطبيعة الإنسانية ، وعلى هذا الأساس تتسم الأحداث التاريخية بدوريتها وتعاقبها ، والانتقال من حياة البداوة إلى حياة التحضر إنما يتم بالعصبية وهذه ظاهرة طبيعية تحدث لجميع الحضارات .

ولقد كان ابن خلدون يعتبر المجتمع كائناً تاريخياً حياً يتطور وفق قوانين خاصة به وهي قوانين يمكن ملاحظتها وتحديدها وذلك عن طريق دراسة مجموع الظواهر الاجتماعية . واعتبر ابن خلدون "العصبية" هي أساس قيام الدولة ، وأن العوامل الاقتصادية من أهم أسباب تطور المجتمعات [١] . إن دراسة ابن خلدون للعصبية وأساسها الذي تقوم عليه ، والدور الذي تلعبه في الحياة الاجتماعية بصفة عامة وحركة التاريخ بصفة خاصة ، إنما تنطلق من فكرته في "الوازع" الذي جعله ضرورة من ضرورات الاجتماع والتعاون [٢] . وبذلك يخضع تاريخ العالم عند ابن خلدون لقوانين حتمية صارمة ، ومن ثم تتسم الأحداث التاريخية بدوريتها وتعاقبها .

وثمة ارتباط وثيق بين الدين والعصبية عند ابن خلدون وتحت عنوان " في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها " يقول " إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل [٣] يوجد تفاعل بين الدين والعصبية ، فالدعوة الدينية تشد من أزر أهل العصبية ومن هنا فالصبغة الدينية كما يرى ابن خلدون إذن تقضي على التنافس والتحاسد الذي هو في أهل العصبية . ومن ثم تكون الغلبة أيضاً بفضل الدين لأهل العصبية ، ويتحقق لهم النصر على أعدائهم.

ويذكر ابن خلدون من بين الوقائع التي تدعم وجهة نظره وهي : كما يقول " هذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعة وثلاثين ألفاً في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم. واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين كان فقط بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشفى عليهم إلا أن

---

٢ ـــــ دكتورة زينب الخضيري ـــــ فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ـــــ[دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩١] ص ٧١ ـــــ ٧٢ .

٣ ـــــ دكتور محمد عابد الجابري ـــــ فكر ابن خلدون ـــــ العصبية والدولة ـــــ معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ص ٢٤٥ .

١ ـــــ ابن خلدون عبد الرحمن المقدمة ص ١١٠ .

الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم" [1] توضح هذه الأمثلة التي ساقها ابن خلدون أن العصبية وحدها ليست كافية لتحقيق الغلب والنصر فلابد من وجود دعوة دينية تقوي العصبية وتزيدها قوة .

والأمر بالمثل فإذا فسدت الصبغة الدينية فقدت العصبية قوتها ويسوق لنا ابن خلدون أمثلة تؤيد وجهة نظره هذه فيقول " واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة أبدي من المصامدة وأشد توحشاً وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فغلبوا على زناتة أولاً واستتبعوهم وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره ." [2] من هذا يتبين لنا أن الدين والعصبية لا غنى لأحدهما عن الآخر . فالعصبية وحدها لا تكفي لتطور الحضارة بل لابد لها من دعوة دينية .

لكن ابن خلدون في نص آخر من مقدمته وتحت عنوان " في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة " يقول " والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلّما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوءة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس " [3] يتضح من هذا النص أن الدين أشد قوة من العصبية في حركة التاريخ إذ له عظيم الأثر في توحيد الناس وجمعهم على كلمة سواء والتأليف بين قلوبهم .

إن التاريخ عند ابن خلدون يتسم على هذا النحو بالحتمية . والحتمية عنده لا تتعارض مع الدين . وقبل أن نختم هذه النقطة ينبغي الإشارة إلى الحتمية بصفة عامة يقول **Jubien Michael** " إن كل حادثة وكل حالة من الحالات في الكون إنما تسير بمقتضى حادثة أو حالة من الحالات المسبقة . والحوادث التي تحدث كذلك في أي زمان ، ماضي ، حاضر ، أو مستقبل إنما هي "محتمة" الحدوث قبل زمان حدوثها . وبالطبع ، فبما أن التصور الرسمي للعلة يكون متعلقاً بمسألة الفاعلية ، فكذلك ينبغي أن يكون تصور الحتمية في التأثير ، وبالنسبة للرأي القائل بأن الحادثة محتمة الوقوع لا يعني إلا أنها ترتبط بحق بحادثة سابقة في انسجام مع قوانين الطبيعة . " [4] هذه نبذة سريعة عن الحتمية .

---

٢ ـــــ المصدر السابق ص ١١٠ .

٣ ـــــ المصدر السابق ص ١١٠ .

١ـــــ نفس المصدر السابق ص ١٠٤ .

2– Jubien Michael – Contemporary Metaphysics An Introduction – Blackwell | Publishers 1997| P : 114.

العناية الإلهية وتكرار أحداث التاريخ :

إن ابن خلدون يؤكد بأنه توجد عناية إلهية تتحكم في القوانين التي تخضع لها الظواهر المختلفة . وهذا لا يتعارض طبعاً مع اعترافه بوجود عوامل تتحكم في سير وتطور كل من الحياة الاجتماعية والتاريخ ، مثل العامل الاقتصادي والطبيعة وقوانين الجبرية التاريخية ، فالعناية الإلهية فوق كل شيء ويمكن أن تتدخل لتغير مجرى كل شيء . وأن صلة الله بالعالم الإنساني ظاهرة في كل زمان ومكان . وأعلن ابن خلدون أن " الله سبحانه وتعالى خلق ما في العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه وأن يد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف " [1] واستشهد ابن خلدون بآيات كثيرة لتدعيم وجهة نظره هذه. وإننا نجد ما يدل على ذلك في القرآن الكريم . قال الله تعالى " الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار " . سورة إبراهيم آية "٣١ ، ٣٢ ، ٣٣" . وقال الله تعالى "الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " سورة الجاثية آية " ١٢ ، ١٣ " . فالعناية الإلهية عند ابن خلدون كما هو واضح من هذه السطور السابقة قد أفضت إلى عملية دورية تمر بها الحضارات . أما العناية الإلهية عند أوغسطين وبوسويه فقد أفضت إلى أحداث فردية لا تتكرر في التاريخ .

إن العناية الإلهية وهي التي تكمن وراء أحداث التاريخ تتخذ وسائل معينة لتحقيق مراداتها في العملية التاريخية نذكر منها العصبية بكافة صورها ، والاقتصاد بالإضافة إلى الدين ، وكلها مظاهر تعبر عن دور العناية الإلهية في المسار العام للتاريخ . والشاهد على ذلك عند ابن خلدون هو ذكره للآيات القرآنية التي تؤكد على أن التاريخ يسير سيراً دائرياً ، من هذه الآيات قول الله سبحانه وتعالى " فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " سورة فاطر أية ٤٣ " . فحركة التاريخ كما رسمها ابن خلدون تسير في أطوار ثلاث متكررة على الدوام في جميع الحضارات وهذه الأطوار هي : طور البداوة ، طور التحضر ، وطور التدهور . وفيما يلي عرض لهذه الأطوار .

١ ـ طور البداوة :

إن حياة البداوة كما يرى ابن خلدون أقدم من حياة التحضر وسابقة عليها ، يقول ابن خلدون " فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعي إلى مقترحه

---

[1] ـــــ دكتورة زينب الخضيري ـــــ فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ص ١٠٨ .

منها " [1] فمرحلة البداوة إذن هي الخطوة الأولى التي يتحرك منها التاريخ ، ففي هذه المرحلة يعيش البدو على الضروري فقط وذلك على خلاف الحضري .

العمران البدوي أصل للعمران الحضري ، ولكل من المجتمعين ألوان من العادات والسلوك وأنماط في الحياة تفرضها طبيعة كل منها ، وهي في المجتمع الحضري أكثر قابلية للتطور الذي يؤدي إلى قمة العمران ، ثم ما يتبع ذلك من تقلص وانحسار في أحقاب زمنية متلاحقة متكررة تكاد تشكل قانوناً ثابتاً . [2] وكما سبقت الإشارة فإن هذا القانون الثابت يعبر في أساسه عن حتمية الانتقال من مرحلة إلى أخرى .

٢ ـ طور التحضر :

وإذا انتقلنا إلى طور التحضر فسنجد أن هذا الطور يتسم بسمات ثلاث ، تختلف عن خصائص الطور الأول تقريباً . فبدلاً من خشونة البداوة تبدأ "رقة الحضارة " ، وبدلاً من المساهمة والمشاركة يبدأ الاستبداد والانفراد بالمجد ، وعوضاً من اعتماد صاحب الدولة على عصبيته وعشيرته يلجأ إلى الموالى والمصطنعين الذين يأخذ في الاعتماد عليهم والاستغناء تدريجياً عن عصبيته ، ومرد ذلك كله إلى تدخل العنصر الاقتصادي في الميدان بشكل أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً ، مما يبرز المصالح الخاصة الشخصية التي تتناقض مع المصلحة المشتركة التي كانت أساس العصبية والملك . [3] إن العصبية التي كانت قوية في طور البداوة أصبحت نتيجة تدخل العامل الاقتصادي ضعيفة في طور التحضر .

وبهذه الطريقة ـ نجد ابن خلدون يعالج البدو والحضر ـ من ناحية على أساس أن كلاً منها مرحلة تعقب الأخرى ، ومن ناحية أخرى في نفس الوقت وفي منطقة واحدة تتعايش جماعات بدوية وحضرية ، كما دارت بينهما صدامات بسبب امتلاك الخيرات المادية ـ وكانت الجماعة المهاجمة النشطة هي جماعة البدو ـ لأنها متحركة وتتأقلم مع الأجواء المناخية المختلفة وتستطيع الصمود أمام الحرمان ، بالإضافة إلى أنها كانت في صراعات مع غيرها من جماعات البدو الأخرى ، ولهذا فرجالها يتميزون بالشجاعة والإقدام ، وكانوا يمتلكون الحد الأدنى للمعيشة ـ ولذا عاشوا في شكل من المساواة

---

١ ـــ ابن خلدون عبد الرحمن ـــ المقدمة ـــ الجزء الأول ـــ تحقيق حجر العاصي ص ٨٤ ـــ ٨٥ .

٢ ـــ دكتور مصطفى الشكعة ـــ الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ـــ الطبعة الثالثة ١٩٩٢ ص ٧٥ ـــ ٧٦ .

٣ ـــ المرجع السابق ص ٣٤٠ .

البدائية ، ولذا أيضاً تقوى روابط الوحدة فيما بينهم . [1] تعبر هذه الفكرة عن حركة الانتقال من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر . وهذه دورة تمر بها كل الحضارات على الأرض سواء تلك التي مضت وذهبت ريحها أو تلك التي ستأتي في المستقبل .

٣ ـ طور التدهور :

وإذا انتقلنا إلى الطور الثالث من أطوار التاريخ عند ابن خلدون فسنجد أن العصبية التي قامت عليها الدولة في طور البداوة أصبحت إلى جانب العامل الاقتصادي العامل الحاسم في انهيار الدولة ودخولها في طور الهرم ، وبعبارة أخرى ، فالهرم إنما يصيب الدولة إذا أصاب إحدى هاتين الدعامتين ، أو كلتيهما ، ضعف أو خلل . ويشرح ابن خلدون هذه العملية بأن الاستبداد إذا بلغ أشده ، وأن الضرائب والمغارم عندما تزداد إلى الحد الذي لا يطاق ، فإن عرى العصبية تتفكك وتضعف لحمتها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، يضجر السكان ويتقاعسون عن العمل ، والنتيجة ضعف الدولة بفساد عصبيتها ، ودخولها في طور الهرم نتيجة الأزمة الاقتصادية المحتومة التي يتسبب فيها تجاوز النفقات للمداخيل ، وعدم إيفاء الدخل بالخرج . [2] يقول ابن خلدون "وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل . [3] تكشف هذه المقارنة التي عقدها ابن خلدون بين التاريخ والطبيعة عن الحتمية . والعصبية هي العلة الرئيسية في قيام الدولة وانهيارها عند ابن خلدون .

وعلى نحو رائع وبديع كتب ابن خلدون عن الحتمية يقول " فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب " [4] توضح هذه العبارة الساحرة ما للدين من دور هام في تشكيل نظرية ابن خلدون في التاريخ . ولا نملك إزاء هذه الأفكار السديدة إلا أن نقول إنه لا يوجد انفصال أو تعارض بين نظرية ابن خلدون التاريخية وبين الدين ، فهما ملتحمان بل يمكن أن نقول أن هذه النظرية اشتقت من آيات القرآن الكريم . وقد أوردت الموسوعة الفلسفية أن الباحثين على اختلافهم قد أعلنوا أن ابن خلدون أسبق من مكيافللي ، فيكو ، مونتيسكيو ، هيجل،

---

١ ـــــ أ . أ . اجناتنكا ـــــ ابن خلدون ـــــ ترجمة ودراسة : دكتور علاء حمروش [مركز اتحاد المحامين العرب للدراسات والبحوث ـــــ القاهرة سنة]١٩٨٦ ص ٦٩ ـــــ ٧٠ .

٢ ـــــ دكتور محمد علي الجابري ـــــ العصبية والدولة ص ٣٤٤ .

٣ ـــــ ابن خلدون المقدمة ص ١٩٠ .

٤ ـــــ المصدر السابق ص ١٩٠ .

دارون ، سبنسر ، ماركس ، توينبي ، وغيرهم . فابن خلدون بمنهجه وطريقته هو أحدث المتخصصين في القرون الوسطى ونمو التأثير في العصور الحديثة . [١] هذه هي صورة الحتمية التي اكتشفها ابن خلدون في مجرى التاريخ ووجد لها سنداً في الآيات القرآنية .

أما في العصر الحديث فقد كانت لنظرية ابن خلدون صدى عند شبنجلر وتوينبي فلقد اعتقد شبنجلر أن نهوض الحضارة ، وتدهورها وأفولها لا يعتمد على ما يدعى بقوانين الطبيعة. ولكنه يخضع لقوة أعظم هي قوة المصير . " فالمصير " هو الذي يسير التاريخ الإنساني وليست العلية . [٢] طبعاً تعتمد نظرية شبنجلر على فكرة المصير ولا تعتمد على العلية . وهذه النظرية أيضاً تؤكد على التفسير الدائري الحتمي للتاريخ .

ويحدد لنا بورتر طبيعة موقف أنصار الحتمية المعاصرة بقوله "هكذا * تشترك الثقافة والمجتمع بالإضافة إلى العوامل البيولوجية والمناخ والجغرافيا في تحديد هوية الأشخاص ومسلكهم . ولا يذكر أنصار الحتمية هنا أي شيء ثوري ، ولكنهم يذكروننا بعدم إمكان إنكار تأثير البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الشخص " . [٣] تلك هي نبذة سريعة ويسيرة عن طبيعة العوامل التي استند إليها أنصار الحتمية المعاصرة في موقفهم الحتمي .

وأخيراً ينبغي القول أن ابن خلدون لم يكن كما تصور الباحثون عالم اجتماع وإنما هو عالم منهج تاريخي استخدم المنهج الاستقرائي في براعة نادرة لتفسير الذوات العرضية التي قابلها تفسيراً يستند على التحليل والتركيب ومستخدماً قياس الغائب على الشاهد من ناحية واستقراء الحوادث العارضة في المشاهدة للتوصل إلى أحكام عامة . [٤] تلك هي نظرية ابن خلدون في التاريخ والتي أقامها على أساس منهج استقرائي صحيح مسترشداً فيها بالكتاب والسنة .

---

[1] - The Encyclopedia Of Philosophy – Volume Three PP : 108 – 109 .

٢ـــ أرنست كاسيرر ـــ الدولة والأسطورة ـــ ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥] ص ٣٨٢ ـــ ٣٨٣ .

* Thus culture and society, together with biological factors, climate, and geography, help to determine people's identity and conduct. The determinist is not stating anything revolutionary here but is reminding us that the effect of a person's social environment and upbringing cannot be denied .

3– Porter Burton F . The Good Life , Collier Macmillan Publishers – London, 1980, P : 59 .

١ ـــ دكتور علي سامي النشار ـــ مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف النهج العلمي في العالم الإسلامي [دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩] ص ٣٤٩ .

فردية أحداث التاريخ عند أوغسطين وموقفه من التفسير الدائري عند اليونان

تنطلق نظرة أوغسطين (*) إلى التاريخ من مسيحيته وإيمانه بالأخرويات ، فالإيمان المسيحي باليوم الآخر أدى بأوغسطين إلى الإقرار بأن الأحداث التاريخية أحداث فردية في أساسها ، والتاريخ عنده سوف يتوقف بمجيء ملكوت الله . وفي إطار هذه النظرة المسيحية للتاريخ رفض أوغسطين التصور الدائري للتاريخ ، كما هو الحال عند اليونانيين ، فالتاريخ عنده لا يعيد نفسه وإنما يتبع اتجاهاً تقدمياً نحو الكمال . لكن العصر الحديث حاول التوفيق بين التصور الدائري للتاريخ وبين الميعاد المسيحي . فأرنولد توينبي بالذات كان مسيحياً مؤمناً بالفكرة الدورية وبالميعاد المسيحي ، فركز كل جهده في التوفيق بين هذين التصورين المتعارضين ، فكان مسيحياً مؤمناً باليوم الآخر كأوغسطين وكان عصرياً ومؤمناً بالمنهج العلمي وبالقوانين العلمية في التاريخ . وهو بهذا قد جمع بين تصورين تعذر التوفيق بينهما عند أوغسطين . لكن هذا الموقف لم يكن جديداً عند توينبي فقد سبقه إليه العالم الإسلامي ابن خلدون .

لقد هاجم أوغسطين التصور اليوناني للزمن . وفي نظره خلق الله الزمن وميزه بالحركة والتغير . ووضعه في نهاية التاريخ بين حالة الماضي والمستقبل الأبديين . ويقرر فكرة الأسبوع العظيم وكأن " يوماً واحداً عند الله كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد " فالأيام الستة للخلق ترمز إلى دوام ستة آلاف سنة قبل الراحة الأبدية . وهكذا يقول أوغسطين أكثر من مرة بأنه "لم يمر إلى الآن ٦.٠٠٠ " منذ الخلق ، إنه يدافع عن هذه الكرونولوجيا القصيرة ضد تواريخ ، تميزت بأنها "باطلة" و "كاذبة" . وهي التي تسمح بوجود آلاف من السنيين في ماضي العالم ، والتي يميز فيها المصري

(*) ولد أورليوس أوغسطين في عام ٣٥٠ م في مقاطعة تاجيست المعروفة الآن باسم الجزائر . وأتم تعليمه في شمال أفريقيا ، وأكمل دراسته العليا في قرطاج عاصمة أفريقيا الرومانية . ويذكر مؤرخو الفلسفة القديمة والوسطى أن أوغسطين هذا تربى على الأفكار القديمة التي كانت سائدة في العصور القديمة المتأخرة . لقد كتب أوغسطين عديداً من المؤلفات التي تشتمل على عدد من المحاورات اختصت بموضوعات فلسفية ، بالإضافة لعدة مؤلفات عن العقيدة من أهمها "عن الثالوث المقدس " وكذلك بعض الشروح في الكتاب المقدس ، وبعض المناظرات اللاهوتية . وفي كتابه " عن مجمع الأرباب " رد أوغسطين على أولئك الذين انتقدوا الديانة المسيحية أثناء الصراع الديني مع الإمبراطورية الرومانية التي كانت لا تزال تعتقد في الأرباب القدامى . إلا أن أكثر أعمال أوغسطين أهمية هو كتاب " الاعترافات " فهو حجة تحدد الإطار الحقيقي لأي دراسة في فكره . وقد توفى أوغسطين عام ٤٣٠ م بعد إثنى عشر عاماً من سقوط الإمبراطورية الرومانية . (ترانس وماركوس ـــــ مقالات في فلسفة العصور الوسطى ـــــ ترجمة دكتور ماهر عبد القادر محمد (دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧) .

بوصفه نوع داخل تلك الكرونولوجيا القصيرة ويدافع عن أبناء العصور القديمة ، ومن ثم سلطة التواره ضد مبالغة المزاعم بـ ١٠٠.٠٠٠ سنة على سبيل حكمة المصريين . فالعبرية حفظت وانتقلت إلى إبراهيم عن طريق عبيرو **Heber**، والذي اشتق من اسمه العالم العبراني ، كلغة مكتوبة . إنه يحاجي بما أن مثل هذه الحكمة كحكمة المصريين لم يكن لديهم تاريخ لإيزيس الذي قدم لهم الآداب منذ عاش بعد إبراهيم بحوالي ألفي عام تقريباً ويدافع كذلك عن خلق العالم والزمن ضد نظرات الإغريق كما هي في أبدية العالم والزمن ، أو العوالم العديدة أو الدمار الدوري وإحياء العالم . [١] فالزمن عند أوغسطين يتميز بالحركة والتغير ، وأحداث التاريخ تتميز بالفردية وعدم التكرار وذلك على عكس التصور اليوناني الدائري للتاريخ .

ويعتبر المفكرون أوغسطين المثل الأكبر للنظرة ـ المسيحية التي ترفض التصور اليوناني للزمان لدورات أبدية تتماثل هي ودورات الأجرام السماوية . [٢] يقول **Karl Lowith** " يميز أوغسطين على أساس هذا الإطار اللاهوتي عصوراً ستة ، مماثلة للأيام الستة للخلق . الأول يمتد من آدم إلى الطوفان العظيم ؛ والثاني من نوح إلى إبراهيم ، والثالث من إبراهيم إلى داود مع نيمرود **Nimrod** ونيموس **Nimus** كأخوين لانمين . والعصر الرابع يمتد من داود إلى الأسر البابلي ، والخامس من ذلك المكان إلى ميلاد المسيح عيسى . والسادس والعصر الأخير ، يمتد نهائياً من المجيء الأول إلى المجيء الثاني للمسيح في نهاية العالم . " [٣] ومدينة الله هي " تاريخ عالمي " . يحكي أوغسطين قصة البشرية ـ حقيقة جميع المخلوقات العاقلة لأنها قصة الملائكة أيضاً ـ من الخلق إلى النهاية الأبدية . وإن الميثاق التاريخي لا يقيد الكتّاب بـ "الأحداث في الزمن " حتى القرن التاسع عشر والعشرين ، ويأخذ أوغسطين الميزة الكاملة لهذه الحرية ليعد مشهده في الأبدية . إن "تاريخ" المدينتين بالمعنى الأكثر حداثة بدأه أوغسطين متأخراً جداً فقط في مدينة الله في ملخص المراحل الكرونولوجية: آدم إلى نوح ؛ نوح إلى إبراهيم ؛ إبراهيم إلى داود ؛ وداود إلى الأسر البابلي ؛ الأسر البابلي إلى المسيح ؛ المسيح إلى نهاية العالم . وسببه للترك المتأخر جداً بأنه يريد تأكيد بأن العصر السابع سيكون السبت في الحقيقة . [٤] ونظرية أوغسطين كما هو معروف انطلقت أساساً من مسيحيته وإيمانه بأن وراء الأحداث التاريخية حكمة خفية أو عناية إلهية ، فهذه النظرة قد تخلت عن نظرية الدورات عند اليونانيين ، وأدركت أن * تاريخ الأرض ظاهرة فريدة في الزمان يتعذر تكرارها ، أو حدوث شبيهة لها . [٥] بهذا نجد

---

[1] - trautmann Thomas R . Time – University Of Michigan[Press, 1996] P : 177 . Available from httb . / / WWW. Books google . Com ." Accessed 15 April 2006 ".

[2] - Lowith Karl, Meaning in History Chicago, [Press, 1949] , P : 160 .

[3] - Ibid PP : 170 – 171 .

[4] - Augustine Of Hippo, City Of God - Penguin Classics,[2004], Conclusion P : 1 . Available from httb . / / WWW. Books . Google.com. " accessed 20 March 2006" .

* - The History of the earth was recognized as a unique phenomenon in time ; it would never occur again or anything resembling it .

[5] - Bury John Bagnell, The Idea Of Progress,[Kessinger Publishing , 2004] , P : 2 .

أن أوغسطين يتحدث عن أحداث فردية وذلك واضح من تقسيمه للتاريخ إلى عصور ست تتماثل هي والأيام الست لخلق الله العالم . والنقطة التي نريد التأكيد عليها هي أن التاريخ سيتوقف عند المجيء الثاني للمسيح .

فأحداث التاريخ كما يتصورها أوغسطين تتبع اتجاهاً تقدمياً نحو الكمال . وإن كتاب مدينة الله عنده هو نموذج كل نظرة يمكن تصورها للتاريخ ، فوصفت بأنها نظرة مسيحية فهي ليست فلسفة للتاريخ بالمعنى المعروف في عصرنا . وإنما هي عبارة عن تفسير دوجماطيقي تاريخي للمسيحية . وكتابه "مدينة الله" مستوحى من حادثة شعب روما . فما كان يهم أوغسطين في المقام الأول هو نظرة السماء إلى الأفعال الإنسانية أو بما يطلق عليه بما وراء التاريخ أو بما بعده . فالعظمة المؤقتة والعابرة للإمبراطوريات في التاريخ لا تهم أوغسطين ولكن ما يهمه هو ما سيحدث في الآخرة من خلاص . [١] فلقد ظهرت المسيحية لأوغسطين أولاً بوصفها مذهباً في الخطيئة أو الحب ، واللطف وظهرت له ثانياً في شكل فكرة كلية ، هي فكرة الكنيسة الأبدية التي ابتدأت بآدم وستنتهي بملكوت الله ، وظهرت له ثالثاً بحسباتها تصاعداً للإنسان الروحي من حيث إن المسيحية تضع قيماً متصاعدة في الحياة الإنسانية وتنتهي بالقيمة العليا قيمة الإنسان في ملكوت الله . [٢] فاتجاه أحداث التاريخ إذن عند أوغسطين يتبع اتجاهاً تقدمياً نحو الكمال . وما يهم أوغسطين ليست أحداث التاريخ والعظمة المؤقتة للإمبراطوريات ولكن ما يهمه هو نظرة السماء إلى أفعال الناس وخلاص الإنسان . ومن هنا فإن نظرية أوغسطين لا يمكن أن تسمى بفلسفة للتاريخ كما هو معروف في عصرنا.

وقد انتقد أوغسطين فكرة وجود دورات دائمة لا تنتهي وقوض حجج القائلين بها، فهو يصف هذه الآراء في كتابه مدينة الله وذلك تحت عنوان "The Cyclical theory of the world's history" فكتب يقول " إن علماء الفيزياء اعتبروا بدورهم أنه يوجد طريق واحد فقط ممكن ومقبول لحل هذه المعضلة أي بالتسليم بدورات متكررة . وأكدوا أن جميع الأشياء في الكون تتجدد وتتكرر بنفس الصورة باستمرار عن طريق هذه الدورات ، وهكذا سوف توجد سلسلة متتالية من العصور الأخرى ، فناء ووجود مرة أخرى في دوران . إن هذه الدورات يمكن أن تحتل مكاناً في عالم واحد مستمر ، أو يمكن أن يكون ذلك في فترات معينة العالم يختفي ويظهر ، مبدياً نفس الملامح التي تظهر كأنها جديدة ، بل التي بحق كانت في الماضي وسوف تعود في المستقبل . فهم عاجزون تماماً عن إنقاذ النفس الخالدة من الدوران السريع المفاجئ ،

Available from
httb . / / WWW . Books . Google . com . " accessed 2 may 2006 " .

بيوري ج . ب . فكرة التقدم ـــــ ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود ـــــ [القاهرة] ١٩٨٢ ص ٤٤ .

[1] - Lowith Karl . Meaning in History PP : 160 – 171 .

٣ ـــــ دكتور عبد الرحمن بدوي ـــــ فلسفة العصور الوسطى ـــــ [الطبعة الثالثة سنة] ١٩٧٩ ص ١٥ .

حتى حين تبلغ الحكمة ؛ إنها ينبغي أن تكون سابقة على التأرجح غير المنقطع بين النعيم الزائف والشقاء الأصلي لأنه كيف يمكن أن يكون النعيم ، بدون أي يقين لاستمرارها الأبدي حين لا تعلم النفس بالشقاء في جهلها قبل أن تأتي ، أو مخاوف وجودها التعس الآخر في غمرة سعادتها ؟ ولكن إذا مضت النفس من الشقاء إلى السعادة ، فإنها لا تستسلم للعودة ، ثم يوجد إلى حد ما شأن من الشئون المحدودة في الزمن ؛ وهو الذي سوف لا ينتهي أبداً في الزمن أو كذلك أيضاً فلماذا لا يمكن أن تكون بنفس الطريقة حقيقة العالم ؟ والإنسان الكائن المخلوق في العالم ؟ كذلك ربما نفر من هذه المسارات الملتوية الزائفة مهما يكن من ما أبدعوه من هذه الحكم الضالة والمضللة بالحفاظ على الطريق المستقيم في الاتجاه الصحيح الخاضع لتوجيه التعاليم الحصيفة " . [1] إن هذا النص الذي أورده أوغسطين يعبر في أساسه عن رفض فكرة الدوران الذي لا ينتهي ، ويعبر كذلك عن رفضه لحجج الفيزيائيين، لأنه ينطلق من إيمانه بأن الأحداث التاريخية لا تتكرر وإنما هي أحداث فردية .

ويرى أوغسطين أيضاً أنه يوجد الآن بعض الذين يقتبسون نصاً من كتاب سليمان المسمى سفر البشارة ، ما هو الذي كان ؟ مثل ما سوف يكون تماماً . وما هو الذي كان قد تم عمله ؟ مثل ما سوف يتم عمله تماماً . لا يوجد شيء جديد تحت الشمس. إذ يقول أي واحد : " أنظر ، هنا شيء ما جديد " ؛ إنه حدث بالفعل في العصور السابقة على عصرنا . فهم يريدون هذا على أنه أخذ كإشارة إلى هذه الحركات الدورية ، عودة إلى نفس الحالة كما كانت، وإعادة جميع الأشياء إلى نفس الظروف . ولكن في الواقع فإن الكاتب يتحدث بما قد ذكره تماماً : أي الأجيال المتعاقبة ، الخروج والوصول ، طرق الشمس ، والتيارات التي تندفع من الماضي . أو يتكلم عموماً عن جميع الأشياء الأخرى التي تصير وتزول : لأنه وجد أناس قبلنا ، ويوجد معاصرون لنا ، وسوف يوجد أناس بعدنا ، وفي نفس الحصون الجيدة ، لكل المخلوقات وللأشجار والنباتات .وحتى المخلوقات الغريبة الشاذة جداً التي تولد ، وبالرغم من اختلاف الواحد منها عن الآخر ، ومع أننا نتكلم بأن بعضها فريد ، ساكن ، ينظر إليها كنوع من العجائب والشواذ فإن حقيقتها أنها كانت من قبل وأنها سوف تكون مرة ثانية ، ولا يوجد شيء طريف أو حديث العهد في حقيقة الوجود الشاذ يولد تحت الشمس . [2] وهذه النظرة التي ترتكزعلى ذلك النص الذي ورد في كتاب سليمان ليست نظرة مقبولة عند أوغسطين ، وصاحب هذا الرأي لم يفهم النص المقتبس فهماً صحيحاً في نظر أوغسطين ، فهذا الأخير يرفض الفكرة الدورية بكافة صورها ، فكل الأحداث التاريخية أحداث فريدة في أصلها .

---

[1] - Augustine Of Hippo – City Of God – PP : 487 – 488 .

[2] - Ibid P : 488 .

ويرى أوغسطين أن بعض المفسرين لكي يتيقنوا ، فإنهم قد أخذوا النص المقتبس بمعنى أن جميع الأشياء قد حدثت فعلاً في قدر الله ، وإنه لماذا لا يوجد " شيء جديد تحت الشمس " فهم يعتقدون أن هذا هو ما أصر الإنسان الحكيم على حمله . وكيفما يمكن أن يكون هذا ، فإن السماء تمنع ذلك الإيمان الصحيح من الاعتقاد بأن عوالم سليمان هذه تشير إلى هذه التقلبات الدورية للفيزيائيين والتي بمقتضى نظريتهم تتكرر على التوالي نفس العصور ونفس الأحداث الدنيوية . فعلى سبيل المثال ، تبعاً لهذه النظرية كما هو الشأن عند أفلاطون ، علم أتباعه في أثينا في القرن الرابع في المدرسة المسماة بالأكاديمية ، وكذلك في قرون الماضي العديدة ، التي فصلتها فترات عريضة على نحو ضخم ومحدود إلى حد ما ، فأفلاطون ، والمدينة ، والمدرسة ، والأتباع قد ظهروا بنفس الطريقة ، تكراراً ويعاد ظهورهم تكراراً في قرون عديدة في المستقبل . [1] وبالإمعان في تفنيد أوغسطين لحجج القائلين بالفكرة الدورية نجد أن موقفه ينطلق من إيمانه المسيحي ، فالله خلق كل شيء في الكون وأن كل شيء سوف ينتهي بمجيء ملكوت الله .

وتحت عنوان **Of the opinion that the human race , like the world itself, has existed** يقول أوغسطين " إننا قد نغفل التأملات حول الطبيعة وأصل الجنس البشري التي أثارها الناس الذين لا يعلمون شيئاً عما يتكلمون . فالبعض يفترض أن العالم ذاته دائماً موجود . ونظروا إلى البشرية بنفس الاعتقاد . وهكذا يصف "أبوليس" نوع هذا الكائن الحي في كلمات : " المخلوق البشري شأنه شأن الأفراد ؛ بل الأبدي ككل الأنواع " . والآن يمكننا أن نطرح هذا السؤال على أصحاب النظريات : " إذا كان العالم دائماً موجود ، فكيف يمكن أن تكون البيانات حقيقية في تواريخكم حينما تعزون الاختراعات المختلفة لأناس مختلفين ، وتعيين هؤلاء المسئولين عن النشأة الأولى للتربية الحرة والفنون الأخرى ، أو السكان الأوائل في المناطق المختلفة من العالم والجذر المختلفة ؟ " وحصلنا على هذه الإجابة : " تدمر العالم أو الجزء الأكبر منه إلى حد ما في فترات متكررة الفيضانات والحرائق كذلك والتي جعلت الإنسانية قلة قليلة ، وتلك البقية من السكان الأصليين جددتها الذرية البقية . وكذلك تكررت الأشياء والابتداء تكراراً ، فإنه يبدو كما لو كان كل زمن هو البداية الأولى ؛ بينما هذه "البدايات" في الواقع هي تجديدات لما انقطع واندثر عن طريق هذه التدميرات الهائلة . والإنسان لا يمكن أن يأتي إلى الوجود إلا من إنسان . والآن فمثل هذه البيانات ترتكز على مجرد افتراض ، وليست معرفة . [2] وبالنسبة لأوغسطين فإنه يعرف أن للإنسان بداية حقه مستقلة عن الأخرى ، لأنه يرى بعيني الإيمان أن الإنسان ليس نتاجاً لعملية توالد ولكنه مخلوق فريد ومطلق . فأول حقيقة تختص بالوجود الإنساني ليست عملية التوالد ، والتماثل بين الأجيال . وإنما هي ما يتصف به كل فرد

---

[1] -Ibid P : 488 .

[2] - S . T . Augustine – City Of God – PP : 483 – 484 .

وكل جيل من ضعف وجهل ، وما يصاب به من اضمحلال ، وموت ، ومع هذا فإن الله قادر على تجديد حيويته ، وإعادة خلقه روحياً [1].

وتحت عنوان The theory of the periodic disintegration and renewal of innumerable worlds, or of one يقول أوغسطين " ويوجد آخرون يعتقدون أن هذا العالم ليس أبدياً . ويفترضون سلسلة لا متناهية من الانحلالات والتدميرات في فترات محددة على مر العصور ؛ واعتقاد البعض منهم أن هذا يحدث بالنسبة لعالم واحد ، وهو الذي يكون واحداً فحسب ، بينما يعتقد آخرون بعدد لا متناه من العوالم . واضطر أصحاب النظريات هؤلاء إلى السماح بالقول بأن الجنس البشري وجد أولاً ، قبل توالد الناس . إنهم لا يستطيعون أن يفترضوا ذلك حينما يدمر العالم بأسره أي نماذج إنسانية يمكن أن تبقى ، كما حدث طبقاً لنظرية أخرى في الفيضانات والحرائق الدورية . إذ إنه بناء على ذلك الزعم ، فإن هذه المصائب والحرائق لكي تنطبق على ذلك الزعم ، فإن هذه المصائب لن تؤثر على الأرض بأسرها ، وكذلك الكائنات البشرية في كل مناسبة ، ومنهم يمكن إعادة بناء السكان الأصليين . بل تفترض هذه النظرية الحاضرة أن العالم نفسه يعاد بناؤه من مادته الخاصة ، وكذلك تعتقد أيضاً أن الجنس البشري ينشأ مرة أخرى من عناصره ، وإذن تنشأ الذرية الغفيرة من المخلوقات البشرية من هؤلاء الآباء الأوائل وكذلك الشيء نفسه يحدث في الحيوانات الأخرى"[2] .

إن مسار التاريخ عند المؤرخين المسيحيين الأوائل كان له أهمية ومعنى حقيقيان، إنه جزء من المسار الكوني الأعظم الذي كان فيه الله والإنسان الشريكين الأساسيين . وفلسفة التاريخ المسيحية هذه أو الملحمة المسيحية قد نظرت إلى المسار التاريخي على أنه المظهر العملي للنضال الكوني بين قوى الخير والشر ، وهذا الصراع هو نضال بين مدينة الله ومدينة الشيطان ، فالنصر الرائع هو حليف للمدينة السماوية والانحلال التام والزوال هو من نصيب المدينة الأرضية . [3] من هنا يمكن أن ندرك أن التاريخ المسيحي هو تاريخ براجماتي .

وحول البراجماتية في فلسفات العصور الوسطى كتب Harry Elmer Barnes يقول تحت عنوان The Christian Philosophy Of History إن الانفصال عن التاريخ الكلاسيكي هو أعظم توكيد ألقي على عاتق البراجماتية والغائية في الأدب التاريخي البطريركي مثله في ذلك كمثل الارتباط بالحالة الأصلية للثقافة الوثنية " [4] . وفي نفس الموضع يقول أيضاً Barnes إنه ليس من الصعب أن ندرك

---

1 - Lowith Karl, Meaning in History P : 163 .
2 - Augustine – City Of God PP : 485 – 486 .
3 - Barnes Harry Elmer – History Of Historical Writing [New York , 1963] , Pp : 42 – 43 .
4 - Ibid PP : 42 .

في مثل هذه الخلفية الفلسفية أن التاريخ المسيحي كان براجماتياً بدرجة لا يحلم بها بوليبوس أو ديونيسوس ؛ أي أنها " فلسفة تدرس عن طريق المثال " بالانتقام الحقيقي . إن الحادثة الأكثر تفاهة لا يمكن أن تخفق في أن يكون لها أهمية حيوية في مثل هذا الموضوع من الإعدام حرقاً . إن هذه " الملحمة ، " التي أخذ تفسيرها الفلسفي من أعمال أوغسطين وقام Orosius بتوضيحها من التاريخ كانت قد وهبت الحياة وباركت البيان الأدبي في عهد Sulpicius Severus . [١] فالبراجماتية التي حاول Barnes أن يجد لها جذوراً في فلسفات القرون الوسطى ليست هي البراجماتية التي تعرفها الفلسفة المعاصرة كما أرسى دعائمها البراجماتيون الأمريكيون وإنما هي محاولات لاهوتية تنطلق أساساً من اللاهوت المسيحي الذي صور فيه أوغسطين صراعاً بين مدينتين مدينة زمنية ومدينة أخرى لا زمنية .

رأى عالم البحر المتوسط في عصر أوغسطين المثال الوحيد لنمو الحضارة المنتهية وتوارث التقليد الأول . وإن الثقافة الكلاسيكية ، سواء في الفن ، أو العلم ، أو الفلسفة وضع عرقها ، الذي أدخله أوغسطين في تطور المستقبل هو التكامل الأكبر لفلسفة التاريخ أي المهمة المتجانسة التي تأتي من جانبنا . والتأليف العظيم الذي صنعه أوغسطين ذلك هو تجسيد الاعتراف بالموقف التاريخي للانحلال والفهم الأكبر أي لا انحلال يمكن أن يكون مطلقاً . ومن هنا ، فإنه مزج إلى الأبد وصف قيام وسقوط الحضارات بالتوكيد العظيم للتقدم المتضمن في التجسيد . [٢] فالعصور الوسطى تدين بالفضل لأوغسطين ، لقد تابعت العصور الوسطى أوغسطين وتصورت تاريخ العالم على أنه ملحمة عظيمة ، تكتمل معناها ومعقوليتها تماماً بمجرد ما تعرف بدايته ونهايته . وثمة أعمال تاريخية عديدة قد ظهرت بين الفلاسفة المسيحيين ، واتسمت بالعمق والشمول ، فهي تشمل الوقائع التي يمكن الحصول عليها وتنظمها في ضوء مبدأ واحد . فكتاب " مدينة الله " لأوغسطين يعترف بغير تحفظ بهذا الطموح . وفلسفة العصور الوسطى في نظر اتين جلسون هي الفلسفة الحقيقية الجديرة بالثناء، وكانت العصور الوسطى في نظره لها فلسفتها الخاصة بالتاريخ ، وإن كان تصورها للتاريخ يختلف عن تصورنا الحديث له ، قد كانت العصور الوسطى منقادة بفلسفتها الخاصة بالتاريخ إلى تصور نفسها أنها قد وضعت في لحظة حاسمة في الدراما التي بدأت بخلق العالم . وفلسفة أوغسطين بالتحديد كانت المصدر الأساسي للتاريخ في العصور الوسطى . [٣] ويمكن القول أن نظرية أوغسطين ليست إلا نظرية لاهوتية ، وإن استندت إلى وقائع

---

[1] - Ibid PP : 42 – 43 .

[2] - Denham Robert D . Northrop Frye's Student Essays | University Of Toronto Press . 1997|, PP : 215 – 216 .
Available From
httb . / / WWW . Books . Google . Com . "accessed 11 April 2006 " .

١ ـــــ اتين جلسون ـــــ روح الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ـــــ ترجمة دكتور إمام عبد الفتاح إمام ـــــ الطبعة الثانية ـــــ [دار الثقافة للطباعة والنشر] ١٩٨٢ ص ٥٨٨ ـــــ ٥٨٩ ، ٥٩٥ .

تاريخية ، ولن نتفق مع اتين جلسون في أن العصور الوسطى كانت لها فلسفة في التاريخ ، والأصوب أن نقول أنها كانت عبارة عن إرهاصات في فلسفة التاريخ ، صحيح أنهم أشاروا إلى مبدأ كلي تنتظم بمقتضاه الأحداث والوقائع التاريخية ، ولكن هذا ليس دليلاً قوياً على وجود فلسفة للتاريخ كما هي الحال في العصور الحديثة .

فردية أحداث التاريخ عند بوسويه

شقت نظرية أوغسطين المسيحية في التاريخ طريقها إلى الأسقف جاك بوسويه في القرن السابع عشر ، فهذا الأخير شأنه شأن أوغسطين تكلم عن أحداث فردية متأثراً بطبيعة الحال بالمسيحية . وفي كتابه المشهور " مقال في التاريخ العالمي " الذي وضعه خصيصاً لولي عهد لويس الرابع عشر تصوير لهذه العملية التي بدأها أوغسطين ، أي التي تقرر فردية الأحداث التاريخية .

والنقطة التي ينبغي الإشارة إليها بداية هي أن بوسويه * يطالبنا بالبحث عن النقاط الدقيقة وإظهارها في التميز بينها وبين خصومها ، وفي هذا كتب بتلر تحت عنوان **Bossuet's Erposition Doctrine Of The Roman – Catholic Church** يقول " في نزاعات كل نوع ، الهدف الأول لهؤلاء الذين يبحثون حقاً عن الحقيقة ، هو إظهار النقاط الدقيقة في الفرق بينها وبين خصومها ، ثم ليرى أن هذه هي تعبير عن الدقة ، في كل من الكلمات والمعنى : وبعد ذلك يحصر المناقشة فيها ، مع إمكانية الانحراف ، في الموضوع الغريب . فكم يفاجئ ، بوجود هذه القواعد ، والإحساسات الخيرة ، والإرادة الخيرة المشتركة تقلل من عدد الأشياء الظاهرة المتعارضة ، والتقليل من وزنها . " [1] تأثر بعمق كل تفكير بوسويه بالقديس أوغسطين واتسم بالتوكيد المميز على السلطة . وفي نظره ، أن الطاعة والنظام هما الأرقى . وأن السلطة المقدسة للكنيسة والحق الإلهي للملوك هما الجذور المتلازمة والمتكررة دوماً في عمله . ويسر المقال غير المكتمل في التاريخ العالمي على تعليم الدافين ليس كثرة ما حدث كعلة . حتى لو جعلت الطبعات الأخيرة بعض الاعترافات المتصلة بالنظرات المتغيرة بصورة متكررة في كورونولوجيا العصور القديمة ، وخصوصاً كما يتبدى في الكتاب المقدس . وفي تعقب مصاير هبوط الإمبراطوريات بالنسبة لشرلمان و [إلى لويس الربع عشر، إذا كان قد أتم خطته] يؤكد بوسويه على

(*) جاك بوسويه ١٦٢٧ ـــــ ١٧٠٤ ولد في ريجسون ودرس القانون وسنه ١٣ سنة . وتفرغ للاهوت وقد رسم قسيسا عام ١٦٥٢ وذاعت شهرته في باريس كواعظ ديني يؤكد سلطة الكنيسة . قويت سلطته بالبلاط الملكي في فرنسا حين أصبح معلماً لابن لويس الربع عشر . هلجم البروتستانتية معتبراً تحررها المذهبي من الكنيسة مظهرا للانحلال . فثالوث الحكم عنده : المسيح ـــــ الكنيسة . أهم كتبه " مقال في التاريخ العالمي " " دراسة في معرفة الله ومعرفة ذاته " " السياسة مستخلصة من الكتاب المقدس " " تاريخ فرق الكنائس البروتستانتية " . [أنظر دكتور أحمد صبحي في فلسفة التاريخ] .

[1] - Butler Charles . Philosophical and Biographical Works. Vol. III . Second Edition .[London , 1817] . P : 207 . Digitized By Google . Available From httb . // WWW . Books . Google . Com . " Accessed 29 June 2006 " .

نظرية التطور الأخلاقي والديني ، معتبراً الحرية بوصفها كعلة أولى للانهيار [1] فنظرية بوسويه في التاريخ تقوم في أساسها على اعتبارات دينية وهذا ما تضمنه كتابه مقال في التاريخ العالمي .

كتب بوسويه تاريخه العالمي ابتداءً من خليقة العالم حتى توطد الإمبراطورية المسيحية الحديثة في الغرب في عهد شرلمان . ويعرض بوسويه في كتابه المقال "Discourse" مخططاً عاماً لتعاقب الحقب الإثنى عشر ، والعصور السبعة للعالم دون تفرقة بين الأحداث المقدسة والأحداث الدنيوية وقدم للعصر السادس مثلاً يقوله : " حوالي سنة ٣٠٠٠ من خلق العالم وفي السنة ٤٨٨ التي أعقبت الخروج من مصر ، ولضبط الصلة بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي نقول أن هذا التاريخ يوافق سنة ١٨٠ بعد الاستيلاء على طروادة " في تاريخ اليونان " قبل إنشاء روما ، ويوافق سنة ١٠٠٠ قبل مولد المسيح ، في هذه السنة انتهى سيدنا سليمان من إنشاء صرحه الهائل وقسم مولد المسيح التاريخ إلى قسمين إذ حددت العناية الإلهية تاريخ مولده ، التي تنبأ بها دانيل بكل دقة ويرى بوسويه وجود ثلاثة تواريخ بارزة في تاريخ العالم أولها ٤٠٠٤ أو ٤٩٦٣ في رواية أخرى لأن بوسويه لم يكن متيقناً أي التاريخين هو تاريخ الخليقة . والثاني هو ٧٥٤ تاريخ إنشاء روما والتاريخ الثالث هو سنة ١ . يقول بوسويه أن مولد يسوع هو آخر التواريخ لأن الإمبراطوريات والممالك تولد وتختفي أما بالنسبة ليسوع فهي آخر المطاف . [2] وفي إطار هذه النظرة المسيحية للتاريخ فإن التاريخ لا يعيد نفسه ، وكل ما هنالك أحداث فردية لا تتكرر . كما يمكن القول أن هذه الأحداث تتسم عند بوسويه بالطابع الديني . وأن التاريخ سينتهي باليوم الآخر .

لقد استعرض بوسويه في كتابه " مقال في التاريخ العالمي " تاريخ العالم إلى نهاية حكم شرلمان في القرن التاسع عشر الميلادي من وجهة نظر دينية بحته ، بل ومن وجهة نظر مسيحية كاثوليكية بتحديد أدق ، فقسم التاريخ إلى أحقاب على أساس ديني مستمد من الكتاب المقدس ، ومن ثم فأهم أحداث التاريخ لديه هي : هبوط آدم عام ٤٠٠٤ ق . م ، طوفان نوح عام ٢٣٤٨ ق . م ، دعوة إبراهيم عام ١٩٢١ ق . م ، نزول شريعة موسى عام ١٤٩١ق.م، ثم ظهور المسيح عيسى ، أما أهم الوقائع بعد ظهور المسيحية فهما واقعتان اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١٢ م ، ثم تتويج البابا شرلمان إمبراطوراً على الرومان عام ٨٠٠م [3] التاريخ على هذا النحو يشتمل على أحداث فردية لا تتكرر في نظره ، وهذا واضح من خلال التواريخ التي ذكرها بوسويه ، وهذه التواريخ والأحداث تواريخ مسيحية مستمدة من الكتاب المقدس .

---

[1] - The Encyclopedia Of Philosophy Volume One, Paul Edwards , Editor in Chief Macmillan Reference | USA . New York | , P : 352 .

2 – Lowith Karl , Meaning in History PP : 138 – 139 .

[3] ـــــ دكتور أحمد محمود صبحي ـــــ في فلسفة التاريخ ص ١٧١ ـــــ ١٧٢ .

وبوسويه يسير على نفس النمط الذي اتبعه أوغسطين ، فهو يؤمن بأن الأحداث التاريخية لا تنشأ إلا بتخطيط من العناية الإلهية ، فوراء الظواهر قوة تحركها وتتحكم فيها . وبمقارنة التاريخ الذي رسمه بوسويه بالتاريخ عند أوغسطين يمكن أن نلاحظ أن كتاب بوسويه يطلعنا على حسه التاريخي الحقيقي الذي يدور حول التاريخ السياسي . وعناية متميزة في تصنيف الأحداث وترتيبها ترتيباً علياً براجماتياً هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن بوسويه أكثر تمثيلاً لروح الكنيسة المسيحية من أوغسطين ، ويمكن أن نلاحظ أيضاً عند بوسويه أنه يؤكد على أن التاريخ يتماثل هو والعلوم الطبيعية من حيث دقته وإمكان التنبؤ بأحداثه فكل شيء بأمر الله ، فالله هو الذي خلق جميع الممالك ويعلم ما سيجري وما سيحدث فيها ومصير الممالك الفاضلة ، وكيف ستزول الممالك الفاسدة المنحرفة ، والإمبراطوريات في نظره ستموت مثلما تموت الأباطرة ، وبوسويه شأنه شأن أوغسطين يتحدث عن وجود صراع بين مملكة الله وممالك الإنسان . [1] نلاحظ أن بوسويه يسير على نفس النهج الذي اتبعه أوغسطين ، لكن نظرية بوسويه في التاريخ أشد قوة من نظرية سلفه ، فكلاهما يؤمن بأن وراء الأحداث التاريخية عناية إلهية محكمة تحركها وتوجهها إلى هدف مرغوب في المستقبل. وأنهما يتحدثان عن صراع بين مدينتين إحداهما سماوية والأخرى دنيوية .

والنقطة التي ينبغي الإشارة إليها قبل أن نخلص من هذا التفسير الديني للتاريخ عند أوغسطين وبوسويه هي الحتمية اللاهوتية وهي عبارة عن التعاليم الموجودة في الإسلام السلفي الأول والتقليدية الأوغسطينية في المسيحية [استوحاها بخاصة كالفين] ذلك لأن الله هو صاحب القوة والمعرفة بكل شيء أي أن ما يحدث ينبغي أن يحدث بإرادته وأن يكون معروفاً له سلفاً . [2] والأمر لا يحتاج هنا الدخول في هذا الموضوع الشائك المعقد ، فقد دارت حوله مناقشات حامية ، فإذا كنا قد أشرنا إليه هذه الإشارة العابرة فما ذلك إلا لبيان وجود حتمية في الدين .

[1] - Lowith Karl , Meaning in History , PP : 137 – 144 .

[2] - Billington Ray , Living Philosophy , An Introduction to Moral Thought. |London and New York , 1988 | P : 217 .

نتائج البحث

في ضوء الهدف الذي تدور حوله هذه الدراسة وهو المقارنة بين فكرة تكرار الأحداث التاريخية وبين فكرة فردية الأحداث التاريخية ، وبيان كيف استندت هاتان النظريتان إلى الدين والإيمان باليوم الآخر . فقد انتهت الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولاً : تتحكم في حركة التاريخ البشري عند ابن خلدون قوانين حتمية صارمة . فاتسمت الأحداث التاريخية عنده بتكرارها وتعاقبها . وبالرغم من تسلسل الأحداث التاريخية وتعاقبها وتكرارها فإن للتاريخ البشري عند ابن خلدون نهاية ، وهذا نابع من عقيدته وإيمانه باليوم الآخر . فابن خلدون كمفكر وعالم إسلامي لا تقوده الحتمية ودورية الأحداث التاريخية إلى اللامتناهي وهو المصير الذي آلت إليه الفلسفة اليونانية . وترجع أهمية نظرية ابن خلدون في التاريخ إلى أنها تهتم بدراسة الأحداث التاريخية دراسة عقلية وواقعية بحثاً عن القوانين التي تتحكم فيها وفي حركتها . ورغم اختلاف ابن خلدون عن السابقين من حيث اهتمامه بدراسة التاريخ دراسة علمية دقيقة إلا أنه لم يبتعد أبداً عن روح الدين الإسلامي وتتبدى أهمية الدين عنده في الآيات القرآنية التي برهن بها على صدق نظريته وإيمانه بدور العناية الإلهية في التاريخ . ونقطة الاتفاق الأساسية بين ابن خلدون وأوغسطين هي التركيز على العامل الديني، فهدف ابن خلدون وكذلك أوغسطين هو أنه توجد نهاية للتاريخ سوف تتوقف عندها مسيرة التاريخ وهو اليوم الآخر .

ثانياً : تقوم نظرية ابن خلدون في التاريخ على مبدأين أساسيين ، الدين ، والعصبية ، فالدين والعصبية لا غنى لأحدهما عن الآخر . فالعصبية وحدها لا تكفي لتطور الحضارة بل لابد لها من دعوة دينية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن ابن خلدون يؤكد بأنه توجد عناية إلهية تتحكم في القوانين التي تخضع لها الظواهر المختلفة . فالعناية الإلهية عند ابن خلدون قد أفضت إلى عملية دورية تمر بها الحضارات . أما العناية الإلهية عند أوغسطين وبوسويه فقد أفضت إلى أحداث فردية لا تتكرر في التاريخ .

إن العناية الإلهية وهي التي تكمن وراء أحداث التاريخ تتخذ وسائل لتحقيق مراداتها في العملية التاريخية وهي العصبية ، والاقتصاد والدين ، وكلها مظاهر تعبر عن دور العناية الإلهية في المسار العام للتاريخ . وباختصار فإنه لا يوجد انفصال أو تعارض بين نظرية ابن خلدون التاريخية وبين الدين ، فهما ملتحمتان بل يمكن أن نقول أن هذه النظرية اشتقت من آيات القرآن الكريم .

ثالثاً : إن التاريخ العالمي كما يصوره أوغسطين يتسم بالتغير وعدم التكرار ، وبوجود وقائع فردية ، وأحداث التاريخ في نظر أوغسطين لها مغزى . وتتبع اتجاهاً تقدمياً نحو الكمال. ويتسم أيضاً التاريخ الكلي للعالم عنده بالطابع المسيحي ، فهبوط آدم

من الجنة ، وطوفان نوح وسقوط روما كلها وقائع فردية لا تتكرر ، كما أنها في الوقت نفسه تحمل دلالة دينية . والقضية التي شغلت أوغسطين واعتبرت عنده الهدف الأسمى هي نظرة السماء إلى الأفعال الإنسانية . فالعظمة المؤقتة والعابرة للإمبراطوريات في التاريخ لا تعني أوغسطين في شيء ولكن ما يعنيه هو ما سيحدث في الآخرة من خلاص.

رابعاً : تنطلق نظرة أوغسطين إلى التاريخ من مسيحيته وإيمانه بالأخرويات ، فالإيمان المسيحي باليوم الآخر أدى بأوغسطين إلى الإقرار بأن الأحداث التاريخية أحداث فردية في أساسها ، والتاريخ عنده سوف يتوقف بمجيء ملكوت الله . وفي إطار هذه النظرة المسيحية للتاريخ رفض أوغسطين التصور الدائري للتاريخ . كما هو الحال عند اليونانيين ، فالتاريخ عنده لا يعيد نفسه وإنما يتبع اتجاهاً تقدمياً نحو الكمال . لكن العصر الحديث حاول التوفيق بين التصور الدائري للتاريخ وبين الميعاد المسيحي . فأرنولد توينبي بالذات كان مسيحياً مؤمناً بالفكرة الدورية وبالميعاد المسيحي ، فركز كل جهده في التوفيق بين هاذين التصورين المتعارضين ، فكان مسيحياً مؤمناً باليوم الآخر كأوغسطين وكان عصرياً ومؤمناً بالمنهج العلمي وبالقوانين العلمية في التاريخ . وهو بهذا قد جمع بين تصورين تعذر التوفيق بينهما عند أوغسطين . لكن هذا الموقف لم يكن جديداً عند توينبي فقد سبقه إليه العالم الإسلامي ابن خلدون . ولا نشك في أن توينبي قد تأثر بابن خلدون في موقفه التاريخي . بقيت نقطة أخيرة وهي أن أوغسطين تكلم عن أحداث فردية وذلك واضح من تقسيمه للتاريخ إلى عصور ست تتماثل هي والأيام الست لخلق الله العالم . والتاريخ سيتوقف عند المجيء الثاني للمسيح .

خامساً : أما بوسويه فإنه مضى في نفس الطريق الذي بدأه أوغسطين ، فآمن بأن الأحداث التاريخية لا تنشأ إلا بتخطيط من العناية الإلهية ، فوراء الظواهر قوة تحركها وتتحكم فيها . ومنهج بوسويه يستند إلى عقيدته الدينية كما هو الحال عند أوغسطين . وفي إطار نظرة بوسويه المسيحية للتاريخ فإن أحداث التاريخ لا تتكرر ، وكل ما هنالك أحداث فردية . وهذه الأحداث تتسم عند بوسويه بالطابع الديني . والتاريخ سينتهي باليوم الآخر . والدليل على أن التاريخ يشتمل على أحداث فردية هي التواريخ التي ذكرها بوسويه ، وهذه التواريخ والأحداث تواريخ مسيحية مستمدة من الكتاب المقدس .

أولاً المصادر الإنجليزية

[1] Augustine Of Hippo - City Of God , On Line Penguin Classics, 2004 . Available From

httb: / / WWW. Books. Google.Com [accessed 20 March 2006] .

[2] Barnes Harry Elmer – History Of Historical Writing – New York ,1963 .

[3] Baumer franklin L . , Modern Thought Macmillan , London 1977 .

باومر فرانكلين ـ الفكر الأوربي الحديث ـ الجزء الأول ـ ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

[4] Billington Ray , Living Philosophy , An Introduction to Moral Thought Routege , London and New York ,1988 .

[5] Bury John Bagnell , The Idea Of Progress, On Line , Kessinger Publishing 2004 available from

httb : / / Books googl [accessed 2 May 2006] .

بيوري ج . ب . فكرة التقدم ـ ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود ـ القاهرة ١٩٨٢ .

[6] Butler Charles , Philosophical and Biographical Works , Second Edition , On Line London , 1817 . available from

httb : / / books googl [accessed 29 June 2006]

[7] Denham Robert D . Northrop Frye's Student essays – University Of Toronto , Press , 1997 .

[8] Gill Stephen , Mittelman James H . Innovation and Transformation in international Studies , Cambridge University Press 2001 .

[9] Jubien Michael – Contemporary Metaphysics An Introduction – Blackwell Publishers , 1970 .

[10] Lowith Karl , Meaning in History Chicago , Press , 1949 .

[11] Porter Burton F . The Good Life – Collier Macmillan Publishers – London ,1980 .

- بورتر بيرتون - الحياة الكريمة - الجزء الأول والثاني - ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ .

[12] Stevenson Leslie – Seven Theories Of Human Nature – Oxford University , Press , 1974 .

[13] Trautmann Thomas R . Time On Line – University Of Michigan Press 1996 . Available From

httb : / / WWW. Books. Google. Com [Accessed 15 April 2006]

.

ثالثاً الموسوعات

[14] The Encyclopedia Of Philosophy Volume one , Paul Edwards , Editor in Chief Macmillan Reference , USA . New York .

[15] The Encyclopedia Of Philosophy – Volume Three , Paul Edwards – Editor in Chief Macmillan reference USA , New York .

قائمة المراجع العربية

أولاً : المصادر :
ابن خلدون عبد الرحمن ـ المقدمة ـ الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ـ تحقيق الأستاذ حجر عاصي منشورات دار مكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٨٦ .
ثانياً المراجع :
١ ـ اتين جلسون ـ روح الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ـ ترجمة دكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ الطبعة الثانية ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٢ .
٢ ـ أجناتنكا أ . أ . ابن خلدون ترجمة ودراسة دكتور علاء حمروش ـ مركز اتحاد المحامين العرب للدراسات والبحوث ـ القاهرة ١٩٨٦ .
٣ـ دكتور أحمد محمود صبحي ـ في فلسفة التاريخ ـ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ـ ١٩٧٥ .
٤ ـ توينبي أرنولد ـ الفكر التاريخي عند الإغريق ـ مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية ـ ترجمة لمعي المطيعي ـ دار الشئون الثقافية العامة بغداد ـ دار النشر المغربية .
٥ـ دكتورة زينب محمود الخضيري ـ فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩١ .
٦ـ كاسيرر أرنست ـ الدولة والأسطورة ـ ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .
٧ـ دكتور محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون ـ العصبية والدولة ـ معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ـ دار الشئون الثقافية العامة بغداد ـ دار النشر المغربية ـ طبعة بدون تاريخ .
٨ـ دكتور مصطفى الشكعة ـ الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظريته ـ الطبعة الثالثة ١٩٩٢ .
٩ـ دكتور عبد الرحمن بدوي ـ فلسفة العصور الوسطى ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩ . ـ
١٠ ـ دكتور على سامي النشار ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩.